



وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ

حين يصبح الصبر طريقًا إلى الله



في كل محنة ..
بصمة حكمة
وفي كل تأخير ..
تربية
ولكل صبر باب إلى الله ..

تأليف:
رَدَّادُ السَّلَامِيِّ



وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ

حين يصبح الصبر طريقاً إلى الله

تأليف: رَدَّاد السَّلامِيُّ

المدخل

ليست القضية أن تصبر... بل لمن تصبر

﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾

ثلاث كلمات.

لكنها من ذلك النوع من الكلام الذي لا يقاس بعدد حروفه، بل بعدد الأبواب التي يفتحها في الروح.

فالصبر كلمة مألوفة، لكن القرآن حين قال:

﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾

لم يترك الصبر وحيداً.

ربطه بالله.

وهنا تغير كل شيء..

فليس كل من احتمل صابراً بالمعنى القرآني، وليس كل من سكت عن الألم قد بلغ مقام الصبر.

قد يصبر الإنسان لأن لا حيلة له.

وقد يصبر خوفاً.

وقد يصبر كبرياءً.

وقد يصبر انتظاراً لفرصة ينتقم فيها.

وقد يصبر لأن الناس يرونه.

لكن القرآن ينتزع منك كل هذه الجهات، ويعيد قلبك إلى جهة واحدة:

﴿وَلِرَبِّكَ﴾.

اصبر لله.

اثبت لله.

احتمل لله.

امض لله.

لا تجعل الناس سبباً في ثباتك، لأنهم يتغيرون.
ولا تجعل الفرج سبباً في صبرك، لأنه قد يتأخر.
ولا تجعل النتيجة سبباً في استقامتك، لأن النتائج ليست ملكك.
اجعل الله هو العلة الأخيرة لكل شيء.
وهنا فقط يصبح الصبر عبادة.
وهنا فقط يمكن للإنسان أن يثبت حين تسقط الأسباب كلها.
إن قوله تعالى:

﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾

ليس توجيهاً عابراً إلى احتمال المشقة.
إنه إعادة بناء للعلاقة بين الإنسان والألم.
فالمصيبة بعد هذه الآية لا تعود مركز الكون.
وانخذاً لا يعود سيد اللحظة.
والتأخر لا يعود برهاناً على الغياب.
والجرح لا يعود صاحب الكلمة الأخيرة.
لأن في المشهد رباً.
ومتى دخل معنى الربوبية في قلب المحنة، لم تعد المحنة وحدها هي الحقيقة.
هناك تدبير فوقها.

وحكمة وراءها.

ورحمة قد لا تراها الآن.

ولهذا فإن أول ما يفعله الإيمان ليس أن يزيل الألم.

بل أن يمنع الألم من أن يحتل مكان الله في قلبك.

الفصل الأول

اللام التي أنقذت الصبر

تأمل هذا الحرف الصغير:

اللام.

﴿وَلِرَبِّكَ﴾.

كأن القرآن يعلمك أن كل عمل عظيم يحتاج جهة عظيمة.

والصبر بالذات يحتاج جهة لا تبدل.

لأنك إن صبرت لأجل الناس، ربما خذلوك.

وإن صبرت لأجل نتيجة، ربما تأخرت.

وإن صبرت لأجل تقدير، ربما لم يأت.

أما إن صبرت لربك، فقد علقت قلبك بمن لا يتغير.

وهذا هو الفارق بين صبر ينكسر وصبر يبقى.

قال تعالى:

﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾.

كأن الصبر ليس فقط لله، بل بالله أيضاً.

لله غاية.

وبالله قوة.

فأنت لا تصبر بقوتك وحدها.

ولا بإرادتك وحدها.

ولا بما تملك من جلد نفسي.

إن الإنسان أضعف من أن يحمل بعض الأقدار وحده.

ولهذا فإن من رحمة الله أنه لم يأمرك بالصبر ثم يتركك لنفسك.
بل قال:

﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾.

أي إن القوة التي ستحتاجها لعبور ما لا تطيق ليست كلها موجودة فيك من البداية.
ستأتيك.

بقدر ما تحتاج.

وفي الوقت الذي تحتاج.
منه.

وهذه فكرة تنقذ الإنسان من عبء ثقل:

ليس مطلوباً منك أن تكون قوياً لكل ما سيأتي الآن.

يكفيك أن تكون متعلقاً بمن يمدك بالقوة حين يأتي ما يحتاجها.

ولهذا فإن أعظم أسرار الثبات ليس أن تقول:

أنا قوي.

بل أن تقول:

ربي معي.

الفصل الثاني

لماذا قال الله: مع الصابرين؟

قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

هذه الآية وحدها كافية لأن تعيد تعريف الصبر كله.

لأن الصبر في الوعي البشري غالباً يرى خسارة مؤقتة:

أنت تتحمل.

تنتظر.

تؤجل رغبتك.

تقاوم ألمك.

لكن القرآن يكشف لك أن شيئاً أعظم يحدث أثناء الصبر:

المعية.

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

يا لعظمة المعنى.

قد تخسر شيئاً وأنت صابر.

لكن ماذا تريح؟

معية الله.

وقد تكون وحدك في الغرفة، لكنك لست وحدك في الحقيقة.

وقد يتركك الناس.

لكن ثمة معية لا يقطعها انسحاب البشر.

وقد لا تفهم.

لكن معية الله لا تتوقف على فهمك.

قد يضيّق الطريق، لكن من كان الله معه، فكيف يكون ضائعاً؟

وهنا يصبح السؤال مختلفاً.

بدل أن تسأل:

لماذا يطول البلاء؟

اسأل:

ماذا يحدث لي وأنا فيه؟

أي قلب يُصنع؟

وأي قرب يتحقق؟

وأي شيء يتساقط مني؟

وأي يقين يولد؟

فقد تكون بعض البلايا أثماناً باهظة، لكنها تشتري لك معرفة بالله لم تكن تعرفها في الرخاء.

وما كل معرفة تُتعلّم من الكتب.

بعض أسماء الله لا تعرفها حقاً إلا حين تمر بها.

تعرف أنه الحفيظ حين تهددك المخاوف.

وتعرف أنه الوكيل حين تنقطع بك الأسباب.

وتعرف أنه اللطيف حين ترى بعد زمن كيف أدارت رحمته ما ظننته خراباً.

وتعرف أنه الجبار حين يصلح فيك شيئاً لا يستطيع الناس حتى رؤيته.

ولهذا فإن الصبر ليس انتظار نهاية المشهد.

أحياناً أعظم أسرارهِ تقع قبل النهاية.

الفصل الثالث

وما أدراك لعل التأخير تربية

قال تعالى:

﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

ولعل واحدة من أصعب الكلمات في حياة الإنسان هي:

عسى.

لأن النفس تريد اليقين العاجل.

تريد أن تعرف:

لماذا حدث؟

وماذا سيأتي بعده؟

ومتى ينتهي؟

لكن القرآن يرييك على مساحة لا تعرفها.

﴿وَعَسَىٰ﴾.

أي إن خلف ما تراه احتمالاً لا تراه.

ومشكلة الإنسان أنه يريد أن يحاكم التدبير من الصفحة الحالية.

يرى الباب أغلق، فيحكم أن القصة انتهت.

يفقد إنساناً، فيظن أن الخير فقد معه.

تتأخر أمنية، فيظن أن العمر ضاع.

لكن الله يرى الكتاب كله.

وأنت ترى سطرًا.

ولهذا قال:

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

هذه ليست جملة تكميلية.

إنها مفتاح فهم الابتلاء.

فالمشكلة ليست فقط في الألم.

بل في أنك تحاول أن تفهم المشهد بعلم محدود.

ثم تقيس عليه حكمة غير محدودة.

وهنا يبدأ اضطراب القلب.

إن أحد أعظم أبواب الراحة أن تعترف بحدود معرفتك.

أن تقول:

أنا لا أعلم.

لكن الله يعلم.

وما أعظم الفرق بين إنسان لا يعلم فيرتعب، وإنسان لا يعلم لكنه يعرف من يعلم.

فالثاني قد يحزن، لكنه لا يضيع.

وقد يبكي، لكنه لا يتهم السماء.

وقد يختار، لكنه يبقى مستنداً إلى معنى أكبر من الحيرة.

الفصل الرابع

إن مع العسر يسرا

قال تعالى:

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾.

تأمل:

لم يقل بعد العسر.

قال:

مع العسر.

كأن اليسر ليس دائماً حدثاً ينتظرك في آخر الطريق.

قد يكون موجوداً داخل العسر نفسه، لكنه في صورة أخرى.

قد يكون يسراً في قلبك.

في إنسان يسندك.

في فكرة تنضج.

في ذنب تتوب منه.

في تعلق يزول.

في بصيرة تفتتح.

في حقيقة تعرفها عن نفسك.

في رحمة لا ترى ملامحها الآن.

نحن نختزل اليسر أحياناً في زوال المشكلة.

لكن القرآن أوسع.

فقد تبقى المشكلة ويأتيك من الله ما يجعلها أصغر منك.

وقد يتأخر الباب، لكن يُفتح في داخلك باب لا يقل عنه قيمة.
وهذه من أعظم صور النجاة:
أن يتسع صدرك قبل أن يتسع طريقك.
أن يهدأ قلبك قبل أن تهدأ الظروف.
أن تشعر أنك لست كما كنت.
أن الذي كان يكسر ظهرك صار يؤلمك لكنه لا يهزمك.
هنا يكون اليسر قد جاء.
ولكنه جاء فيك قبل أن يأتي حولك.
ولهذا فإن انتظار الفرج الخارجي وحده قد يجعلنا لا نرى آلاف أشكال الفرج الداخلي.

الفصل الخامس

الصبر ليس سكوناً

قال تعالى:

﴿وَأَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾.

ما أبعد هذا عن صورة الصبر المستسلم.

﴿اصبروا﴾.

﴿صابروا﴾.

﴿رابطوا﴾.

كلها أفعال.

حركة.

مواجهة.

ثبات.

الصبر القرآني ليس أن تنسحب من الحياة.

بل أن تبقى في موضعك الأخلاقي عندما تضغط عليك الحياة لتغادره.

أن تبقى صادقاً حين يبدو الكذب أسرع.

أن تبقى عفيفاً حين تنسع أبواب الفتنة.

أن تبقى عادلاً حين تكون قادراً على الانتقام.

أن تبقى رقيق القلب رغم ما لقيت.

أن تعمل رغم البطء.

أن تدعو رغم التأخر.

أن تحاول مرة أخرى رغم التجربة السابقة.

هذا هو الصبر.

إنه رفض أن يجعل الألم منك نسخة منه.

فالخيانة تريد أن تعلمك الخيانة.

والقسوة تريد أن تعلمك القسوة.

والظلم يريد أن يقنعك أن العدالة وهم.

والفشل يريد أن يمنحك اسماً جديداً: فاشل.

لكن الصبر يقف في وجه كل ذلك ويقول:

لن أسمح لما حدث لي أن يقرر من أكون.

يا لها من عبادة عظيمة.

أن تمر بالنار دون أن تصير ناراً.

الفصل السادس

واستعينوا بالصبر والصلاة

قال تعالى:

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾.

تأمل كلمة:

استعينوا.

كأن القرآن يعرف أن الإنسان سيأتيه ما لا يكفي له وحده.

سيأتيه يوم يحتاج فيه إلى عون زائد.

إلى شيء يخرج به من ضيق نفسه.

وضع الله أمامه باين:

الصبر.

والصلاة.

الصبر يحفظك من الانهيار في الخارج.

والصلاة تعيد قلبك إلى مصدر القوة في الداخل.

وكم من إنسان حاول أن يصبر بلا صلاة، فصار الصبر عنده قسوة على النفس.

وكم من إنسان صلى دون صبر، فظل يطلب أثر العبادة فوراً.

لكن اجتماعهما يصنع شيئاً آخر.

الصبر يمنح الصلاة زمنها.

والصلاة تمنح الصبر روحه.

حين تقف في الصلاة وأنت مجوع، لست تؤدي طقساً.

أنت تعيد ترتيب الكون في قلبك.

المشكلة كانت قبل التكبير أكبر شيء.

ثم تقول:

الله أكبر.

فإن صدقت الكلمة، صار كل شيء بعدها أصغر.

الله أكبر من خوفك.

وأ أكبر من حاجتك.

وأ أكبر من الذي ظلمك.

وأ أكبر من الباب المغلق.

وأ أكبر من المستقبل الذي تخشاه.

وأ أكبر حتى من نفسك.

لهذا كانت الصلاة ملجأً لا واجباً فقط.

مكاناً يعود فيه الإنسان إلى حجمه الحقيقي.

عبداً.

ورباً فوقه يدبر.

الفصل السابع

حين لا تفهم: قصة موسى والخضر في حياتك

من أعجب مشاهد القرآن تلك الرحلة التي كان فيها موسى يرى أحداثاً تبدو في ظاهرها غير مفهومة:

سفينة تُحرق.

وغلام يُقتل.

وجدار يُقام بلا أجر.

وفي كل مرة كان العقل يسأل.

وفي النهاية انكشف جزء من السر.

﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾.

كأن الصبر أحياناً هو القدرة على البقاء هادئاً داخل قصة لم يصل تأويلها بعد.
وهذا بالضبط ما نعيشه.

أحداث كثيرة في حياتنا تبدو في أولها كـ"حرق السفينة".
نراها خسارة محضة.

ثم تمضي الأعوام فنكتشف أنها كانت حماية من أخذ السفينة كلها.
كم موقفاً بكينا عليه ثم شكرنا الله عليه بعد زمن؟
وكم باباً أغلقناه في الذاكرة على أنه قسوة، ثم اتضح أنه نجاة؟
إن مشكلة الإنسان ليست دائماً أن القدر مؤلم.

بل أن التأويل متأخر.

نريد أن نفهم في اللحظة نفسها.

لكن بعض الأجوبة تحتاج مسافة زمنية.

وبعضها لن نعرفه في الدنيا أصلاً.
وهنا يأتي الصبر ليملاً الفراغ بين الحدث والتأويل.
إنه الإيمان في المسافة التي لا نفهم فيها.

الفصل الثامن

صبر يعقوب: العين تبكي والقلب يعرف

قال يعقوب عليه السلام:

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾.

ثم قال القرآن عنه:

﴿وَأَبْيَضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾.

تأمل هذا التوازن المدهش.

صبر جميل.

وحزن شديد.

إذن فالصبر ليس أن تختفي المشاعر.

ولا أن تصبح بارداً.

ولا أن تنكر الألم.

لقد حزن نبي حتى ابيضت عيناه، ومع ذلك سماه القرآن صاحب صبر جميل.

وهنا تتسع الرحمة.

يمكنك أن تكون صابراً وأنت تبكي.

أن تكون مؤمناً وأنت متعب.

أن تكون واثقاً بالله، ومع ذلك يضيق صدرك لحظة.

الشرط ليس ألا تشعر.

بل ألا يقطعك شعورك عن الله.

قال يعقوب:

﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾.

لم يكتّم.

لكنه عرف أين يذهب بحزنه.

وهذا فارق عظيم.

إن الشكوى إلى الله ليست ضد الصبر.

قد تكون من أجمل صوره.

أن تحمل ألمك إلى الموضع الصحيح.

بدل أن يتحول داخلك إلى سم، ترفعه دعاء.

بدل أن يجعلك اليأس تنغلق، يجعلك الافتقار تنفتح.

وكم يختلف الحزن حين يكون له قبلة.

الفصل التاسع

لا تقنطوا من رحمة الله

قال تعالى:

﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾.

القنوط ليس مجرد حزن.

هو حكم.

أن تقول في داخلك:

انتهى.

لن يتغير شيء.

لا أمل.

وهذه خطورة اليأس:

أنه يتكلم بلغة اليقين عن شيء لا يعلمه.

أنت لا تعرف الغد.

فكيف تجزم أن لا خير فيه؟

لا تعرف ماذا يدبر الله.

فكيف تحكم أن الأبواب كلها أغلقت؟

اليأس ادعاء معرفة بالمستقبل.

والإيمان تواضع أمام الغيب.

لهذا كان الرجاء عبادة عقل أيضاً، لا مجرد عاطفة.

أنت ترجو لأنك تعلم أنك لا تملك صورة كاملة.

ولأنك تعلم أن الله قادر على ما لا يخطر لك.

كم شيء تغير في يوم واحد؟
وكم إنسان نام على باب مغلق واستيقظ والكون كله قد تحرك؟
لكن لا تجعل الرجاء متعلقاً بصورة واحدة.
ربما لم يأتك الخير في الشكل الذي طلبته.
وربما كان إنقاذك في أن يغير الله رغبتك نفسها.
المؤمن لا يقول:
أنا متأكد أن هذا الشيء سيأتي.
بل يقول:
أنا متأكد أن الله لن يتركني بلا تدبير.
وهذه أوسع.
وأكثر أماناً.
وأشد صلة بالله من صلتها بالأمنية.

الفصل العاشر

والله يحب الصابرين

قال تعالى:

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾.

لو لم يكن في الصبر إلا هذه لكفت.
نحن نطلب من الصبر عادةً أن يوصلنا إلى الفرج.
لكن القرآن يريك غاية أعلى:
أن يوصلك إلى محبة الله.
تخيل أن لحظاتك التي ظننتها مجرد تحمل كانت أبواباً إلى المحبة.
تلك الليالي التي قاومت فيها اليأس.
تلك المرات التي سكّت فيها عن الحرام.
ذلك اليوم الذي بقيت فيه مستقيماً مع أن كل شيء فيك كان يريد الانفجار.
ذلك الظلم الذي لم يجعلك ظالماً.
تلك الشهوة التي قاومتها في الخفاء.
ذلك الدعاء الذي كررته ولم ترَ الإجابة.
هذه الأشياء لا تضيع.
قد لا يراها أحد.
لكن الله يحب الصابرين.
وهنا يتحول معنى البلاء جذرياً.
أنت لا تمر فقط بمرحلة صعبة.
قد تكون تبني مقاماً في محبة الله.

وما أهون الدنيا كلها إذا كانت بعض أوجاعها سلباً إلى هذا المقام.

الفصل الحادي عشر

الصبر على الناس... دون أن تتحول إلى ما آذاك

قال تعالى:

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

هذا من أشق أنواع الصبر.

لأن دفع الإساءة يمثلها سهل على النفس.

لكن أن تنصرف من قيمك لا من استفزاز الآخر، فهذا يحتاج قوة.

ومع ذلك يجب فهم هذا المعنى بدقة.

الإحسان لا يعني السماح بالاستباحة.

والعفو لا يعني إلغاء الحدود.

والصبر لا يعني البقاء في موضع الضرر.

فقد يكون من الحكمة أن تبتعد.

ومن الكرامة أن تقول: كفى.

ومن النضج أن تمنع تكرار الأذى.

لكن المهم ألا تجعل الذي آذاك ينجح في إعادة تشكيل قلبك.

فإذا جعلك الكاذب كاذباً فقد انتصر مرتين.

وإذا جعلك الخائن خائناً فقد أخذ منك أكثر مما كنت تظن.

وإذا جعلتك القسوة قاسياً فقد نقلت العدوى.

الصبر الحقيقي أن تحمي نفسك دون أن تفقد نفسك.

أن تتعلم، لا أن تتسمم.

أن تضع حداً، لا أن تحيا في حقد.

أن تغلق الباب، لكن لا تجعل الباب المغلق هو الشيء الوحيد الذي تنظر إليه بقية عمرك.

الفصل الثاني عشر

إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ

قال تعالى:

﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

بغير حساب.

يا لها من عبارة.

كأن بعض ما يحتمله الإنسان في الدنيا لا يليق به أجر محسوب.

هناك وجع لا يعرف الناس حجمه.

وأيام مرت على الإنسان وهو يؤدي واجباته كأن شيئاً لم يحدث، بينما كان في داخله يحمل جبلاً.

هناك صبر لا يعرفه حتى أقرب الناس.

لكن الله يعرف.

يعرف تلك اللحظة التي كدت تسقط فيها ثم تماسكت.

ويعرف ما كلفك الصمت.

وما كلفك العفو.

وما كلفك الانتظار.

وما كلفك أن تظل نقياً في بيئة تجرّك إلى القبح.

ولهذا لا تخف من الأشياء التي لم يثن عليك أحد بسببها.

ربما كانت عند الله أعظم من كل ما مدحك الناس عليه.

الناس يحكمون على الظاهر.

أما الله فيعلم الوزن الحقيقي للأشياء.

وقد تكون جملة لم تقلها لله أعظم من خطبة قلتها أمام الناس.
وقد تكون معصية تركتها في السر أعظم في ميزانك من عمل اشتهرت به.
وهنا يصبح الإخفاء نفسه طمأنينة.
يكفي أن الله رأى.

الفصل الثالث عشر

فلا تعلم نفس ما أخفي لهم

قال تعالى:

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾.

ليس كل شيء ينبغي أن تراه الآن.

بعض العطايا محفوظة.

وبعض التعويضات مؤجلة.

وبعض الأسرار لم يحن كشفها.

نحن نريد المكافأة في الزمن الذي نراه.

لكن الإيمان يوسّع أفق الإنسان إلى ما وراء اللحظة، بل إلى ما وراء الدنيا.

ليس كل حساب هنا.

وهذا وحده يعيد ترتيب فكرة العدالة.

قد ترى ظالماً لم يأخذ جزاءه.

ومحسناً لم ينل حقه.

وصابراً مات قبل أن يرى ثمرة صبره.

لو كانت الدنيا هي المحكمة الأخيرة لكان في ذلك اضطراب عظيم.

لكنها ليست كذلك.

هناك يوم آخر.

وحساب آخر.

وعدل لا يفوته شيء.

وحين تعرف أن القصة لا تنتهي عند القبر، تتغير قدرتك على احتمال فصولها الناقصة هنا.

بعض القصص لا تُفهم خاتمتها في الدنيا.
ومع ذلك لا تبقى ناقصة عند الله.

الفصل الرابع عشر

ربنا أفرغ علينا صبراً

قال تعالى على ألسنة المؤمنين:

﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾.

لم يقولوا:

أعطنا قليلاً من الصبر.

قالوا:

﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا﴾.

كأن الصبر شيء ينزل على القلب حتى يغمره.

وهذا يعلمك أن تطلب الصبر كما تطلب الفرج.

نحن غالباً نقول:

يا رب أخرجني من هذه المحنة.

لكن أحياناً نحتاج أن نقول أيضاً:

يا رب، إن لم تخرجني منها الآن، فأُنزل عليّ من القوة ما يجعلني أخرج منها دون أن أنكسر.

يا رب، لا أطلب فقط تغيير الطريق.

أطلب قلباً يعرف كيف يمشي فيه.

لا أطلب فقط نهاية الخوف.

أطلب يقيناً أكبر منه.

لا أطلب فقط غياب الألم.

أطلب معنى يمنع الألم من العبث بي.

وهذا الدعاء يغيّر الإنسان.

لأنه ينتقل من سؤال الله أن يغير العالم دائماً، إلى سؤال الله أن يغيره هو أيضاً.
وهذه بداية النضج الروحي.

قال تعالى:

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾.

العجلة من أخطر أعداء الصبر.

إنها لا تقول لك فقط:

أريد الشيء الآن.

بل قد تدفعك إلى أن تترك طريقاً صحيحاً لأن نتيجته بطيئة.

أن تنزل عن مبدأ لأن ثمنه مرتفع.

أن تقطع نضجاً قبل اكتماله.

لكن الطبيعة نفسها تعلمك أن الأشياء العميقة تحتاج وقتاً.

الشجرة لا تستعجل ثمرها.

والجرح لا يلتئم بأمراً.

والإنسان لا ينضج دفعة واحدة.

وأخطر ما نفعله بأنفسنا أن نقارن مراحلنا النهائية بمراحل الآخرين الظاهرة.

ترى شخصاً وصل، ولا ترى الطريق.

ترى النتيجة، ولا ترى السنوات.

ثم تظن أنك تأخرت.

لكن الله لم يجعل الناس ساعاتٍ تضبط بها عمرك.

لك توقيتك.

وقد تكون هناك أشياء لو جاءت قبل أوانها لأفسدتك.

وبعض التأخير حماية من نسخة منك لم تكن بعد قادرة على حمل النعمة.

الفصل السادس عشر

حين يصبح الصبر عبوراً لا إقامة

ثمة فرق بين أن تصبر على الألم، وأن تبني بيتاً داخله.

الصبر ليس أن تجعل الجرح هويتك.

ولا أن تعرف نفسك دائماً من خلال ما حدث لك.

أنت لست المصيبة.

ولست الخيانة.

ولست الفشل.

ولست الذي تركك.

ولست الخطأ الذي ارتكبته.

هذه أحداث في قصبتك.

وليست اسمك.

القرآن دائماً يدفع الإنسان إلى الأمام.

حتى التوبة ليست سجيناً في الماضي.

إنها عبور.

والصبر كذلك.

قد تتذكر.

لكن لا تسكن.

قد تتألم.

لكن لا تجعل الألم وطناً.

قد تنظر إلى الوراء لتفهم.

لكن لا تمشِ إلى الخلف بقية عمرك.
إن بعض الناس ينجون من الحدث، لكن الحدث لا ينجو منهم.
يبقى حياً داخلهم سنوات.
والنجاه الكاملة أن ينتهي الحدث داخلك أيضاً.
أن تصبح الذكرى خبراً لا زيفاً.
أن تذكر ما حدث دون أن يعود يحدث فيك.
وهذه مرتبة عالية من الشفاء.

الفصل السابع عشر

فاصبر صبراً جميلاً

قال تعالى:

﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾.

جميلاً.

ما أعجب أن يكون للصبر جمال.

ليس كل صبر جميلاً.

قد يصبر الإنسان ولسانه ممتلئ بالسخط.

وقد يصبر ظاهرياً وقلبه ينهشه الحقد.

وقد يصبر وهو يعد اللحظة التي ينتقم فيها.

أما الصبر الجميل فهو الذي لا يشوه الروح.

تألم، لكن لا تقبح.

تحزن، لكن لا تظلم.

تنتظر، لكن لا تسيء الظن بالله.

تكسر، لكن لا تكسر من حولك.

هذا الجمال الأخلاقي ربما هو أعظم ما يميز أهل الإيمان.

ليس لأنهم لم يعرفوا القسوة.

بل لأنهم عرفوها ولم يسمحوا لها أن تصبح لغتهم.

الفصل الثامن عشر

ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور

قال تعالى:

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنَ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

الصبر والغفران هنا ليسا ضعفاً.

القرآن يسميهما:

﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

العزم.

أي قوة القرار.

كم نخطئ حين نظن أن الانتقام هو القوة دائماً.

أحياناً القوة أن تكون قادراً على الرد ثم تختار ما هو أنقى.

أن تكون قادراً على كشف من أساء إليك ثم تستغني عن ذلك.

أن تتجاوز لأنك لا تريد أن تبقى مربوطاً بماضيك.

لكن الغفران لا يعني إلغاء العدالة.

ولا يعني إعطاء المعتدي فرصة جديدة للأذى.

إنه تحرير القلب من عبودية الجرح.

وقد تغفر وتبتعد.

وتغفر ولا تنسى الدرس.

وتغفر ولا تعيد العلاقة.

فالقلب يمكن أن يكون نقياً، والعقل حذراً في الوقت نفسه.

الفصل التاسع عشر

إن الله يدافع

قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

كم يتعب الإنسان حين يحاول أن يدافع عن نفسه أمام الجميع.

يشرح.

ويبرر.

ويثبت.

ويرد.

ويلحق كل إشاعة.

لكن ثمة لحظة نضج يقول فيها:

ليس كل ميدان يستحق أن أدخل إليه.

وليس كل اتهام يحتاج جواباً.

وليس كل من أساء فهمي مؤهلاً ليفهمني.

هناك أشياء يكفي أن يعلمها الله.

ليس هذا هروياً.

بل معرفة بالحدود.

فإن كنت ستقضي عمرك في تصحيح صورتك في أعين الناس، فلن يبقى لك عمر تعيش به حقيقتك.

افعل ما يجب.

بين إذا وجب البيان.

ثم لا تجعل حياتك كلها محكمة دفاع.
إن الله يدافع.
وهذه الآية تعيد إلى القلب سكينته.
فليست كل المعارك لك.

الفصل العشرون

حتى إذا استيأس الرسل

قال تعالى:

﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾.

تأمل موضع النصر.

عند أقصى الضيق.

عند اللحظة التي تبدو فيها الحسابات البشرية كلها ضدك.

ليس لأن الفرج لا يأتي إلا بعد الانهيار دائماً.

لكن لأن القرآن يريد أن يحرر قلبك من عبادة المؤثرات.

قد تكون المؤثرات كلها سلبية، والله يدبر شيئاً لا يظهر في المؤثرات.

وأكثر ما يخيف الإنسان أن يرى الواقع ولا يرى فعل الله فيه.

فهو يقيس الممكن بما أمامه.

لكن فعل الله لا يُقاس بحدود ما تراه.

كم من مستحيل انقلب في لحظة لأنه كان مستحيلاً عليك، لا على الله.

لهذا لا تجعل حالك اليوم حكماً نهائياً على غدك.

الفصل الحادي والعشرون

سيجعل الله بعد عسر يسراً

قال تعالى:

﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾.

ليست القضية أن العسر سيبقى بلا نهاية.

كل شيء في الدنيا مؤقت.

حتى أكثر لحظاتك سواداً لها زمن.

لكننا حين نكون داخل الألم نشعر أنه أبدي.

كأن الحزن سيبقى هكذا إلى آخر العمر.

ثم يمر الزمن.

ويخف ما ظنناه لا يخف.

وتتغير الوجوه.

وتتبدل الأشياء.

ويصبح ما كان يحتل القلب كله مجرد زاوية صغيرة في الذاكرة.

كم من شيء ظننته النهاية، ثم اكتشفت أنه فصل؟

الدنيا لا تبقى على حال.

وهذا من رحمتها.

فلا تعط لحظة عابرة صفة الأبد.

الفصل الثاني والعشرون

ربك لا ينسى

قال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾.

من أكثر ما يوجع الإنسان في الانتظار أن يشعر أنه نُسي.

أن دعاءه ضاع.

أن تعبهُ لم يُر.

أن الخير الذي فعله مر بلا معنى.

لكن القرآن يضع هذه الجملة كيد على كتف قلبك:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾.

لا ينسى دعاءك.

ولا صبرك.

ولا دمعك.

ولا ذنباً تركته لأجله.

ولا خيراً فعلته ولم يعرفه أحد.

ولا لحظة اخترت فيها رضاه مع أن نفسك أرادت شيئاً آخر.

لا ينسى.

حتى إن نسيت أنت بعض ما قدمت.

وهذا يريح القلب من الهلع على الحقوق عند الله.

ما عنده محفوظ.

الفصل الثالث والعشرون

إن ربي لطيف لما يشاء

قال يوسف عليه السلام في آخر الرحلة:

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾.

لاحظ أنه قالها في النهاية.

بعد الجب.

وبعد الفراق.

وبعد الرق.

وبعد السجن.

ثم رأى كيف التقت الخيوط.

وهكذا يكون لطف الله أحياناً.

لا يظهر في لحظته.

تراه حين تكتمل الصورة.

فاللطف ليس دائماً أن يمنع الألم.

أحياناً أن يمرر بك الألم إلى حيث لم تكن تستطيع الوصول من طريق آخر.

يوسف لو لم يدخل الجب، لما دخل القصر.

ولو لم تقع المحنة، لما بدأ الطريق نفسه.

وهذا لا يجعل الجب جميلاً.

لكن يجعلنا أكثر تواضعاً في الحكم على الأحداث.

كم من جبٍّ في حياتك قد يكون له تنمية لم ترها بعد؟

الفصل الرابع والعشرون

وآخر الصبر: أن يصبح الله هو العوض

هناك مرحلة في الطريق يتغير فيها السؤال كله.

في البداية تقول:

يا رب أعطني ما أريد.

ثم تقول:

يا رب اختر لي.

ثم في منزلة أعمق تقول:

يا رب، لا تجعل الشيء الذي أطلبه أحب إليّ منك.

هنا يصفو القلب.

ويتحرر.

ليس معنى ذلك ألا تريد شيئاً.

بل ألا يصبح الشيء إلهاً صغيراً داخل قلبك.

ألا نتوقف علاقتك بالله على حصولك عليه.

ألا تقول في داخلك:

إن أعطيتني رضيت.

وإن منعتني تبدل قلبي.

هذا مقام عظيم.

أن تظل تعرف الله في العطاء والمنع.

في الفتح والإغلاق.

في الفرح والحزن.

أَنْ تَعْرِفَ أَنَّهُ رَبُّكَ فِي كُلِّ الْحَالَاتِ، لَا رَبُّكَ فَقَطْ حِينَ يُعْطِيكَ مَا تُحِبُّ.
وَهُنَا يَصِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾

إِلَى أَعْمَقِ مَعَانِيهِ.

اصْبِرْ لَهُ.

لَا لِمَا تَرِيدُ مِنْهُ.

وَحِينَ يَصِلُ الْقَلْبُ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ، يَتَبَدَّلُ مَعْنَى الْعَوْضِ.

قَدْ يَعْوِضُكَ اللَّهُ بِشَيْءٍ..

وَقَدْ يَعْوِضُكَ عَنِ الشَّيْءِ..

وَقَدْ يَكُونُ أَعْظَمُ الْعَوْضِ أَنْ يَعْوِضُكَ بِنَفْسِهِ:

بِقُرْبِ.

وَيَقِينِ.

وَسَكِينَةٍ.

وَمَعْرِفَةٍ.

وَهَذَا عَوْضٌ لَا يَزُولُ بِزَوَالِ الْأَشْيَاءِ.

حين تصبح الآية وطناً

﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾.

بعد كل هذا، تعود إلى الآية فتجدها أكبر مما كانت.

كأنك لم تكن تقرؤها في البداية إلا من الخارج.

أما الآن فتدخلها.

وتسكن معناها.

فهي لا تعدك أن الطريق سيكون قصيراً.

ولا أن الناس سينصفونك.

ولا أن كل ما فقدته سيعود.

ولا أن كل دعاء سيأتي بالشكل الذي رسمته.

ولا أن كل ألم ستعرف حكمته هنا.

لكنها تعطيك شيئاً أعظم:

جهة.

وحين يملك الإنسان جهة صحيحة، لا تضره كثرة المنعطفات.

﴿وَلِرَبِّكَ﴾.

إن طال الطريق.

﴿وَلِرَبِّكَ﴾.

إن تأخر الفرج.

﴿وَلِرَبِّكَ﴾.

إن تغير الناس.

﴿وَلِرَبِّكَ﴾.

إن لم يفهمك أحد.

﴿وَلِرَبِّكَ﴾.

إن لم تعرف لماذا يحدث ما يحدث.

فاصبر.

لا لأنك لا تتعب.

بل لأن التعب ليس ربك.

اصبر.

لا لأن الجرح لا يؤلم.

بل لأن الجرح لا يملك تعريفك.

اصبر.

لا لأنك ترى النهاية.

بل لأنك تعرف من يملكها.

اصبر حين تضعف.

فإن الله لم يأمرك ألا تضعف.

بل ألا تنقطع.

اصبر حين تبكي.

فالبكاء لا ينقض الإيمان.

اصبر حين لا يبقى فيك من القوة إلا ما يكفي ليوم واحد.

فإن الله لا يطالبك اليوم بقوة الغد.

اصبر حين يغيب التأويل.

فشمة أشياء لا يظهر معناها إلا بعدما تعبرها.

اصبر حين يطول الليل.

فالفجر لم يحتج يوماً إلى إذن من الظلام كي يأتي.

اصبر.

لكن لا تصبر للفرج وحده.

فالفجر قد يأتي، ثم تنتهي عبادتك.

اصبر لربك.

حتى إذا جاء الفرج وجدك أقرب إليه.

وإذا لم يأتِ بالصورة التي طلبت، وجدك قد تعلمت أن الله أكبر من الصورة.

ولعل أرفع ما يصل إليه القلب بعد رحلة طويلة مع الصبر أن يقول:

يا رب،

كنت في أول الطريق أريد أن تغير قدري.

ثم تعلمت أن أطلب منك أن تغيرني في قدري.

وكنت أظن أن النجاة أن تخرجني من البلاء.

ثم عرفت أن من النجاة أن تدخل البلاء معي بمعيته.

وكنت أطلب أن أفهم.

ثم تعلمت أن معرفتي بك قد تكفيني حين لا أفهم.

وكنت أنتظر العوض.

ثم اكتشفت أن قربك أعظم العوض.

وهنا،

عند آخر ما يستطيع القلب قوله،

تتحول الآية من أمر إلى يقين:

﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾.

لأنك إن عرفت لمن تصبر،

هان عليك أن تعرف إلى متى.